مجلة جامعة الملك سعود، م 25، الآداب (2) ، ص ص 231-240، الرياض (2013م/ 1434هـ)

الدراسات البينية والتخصصية في العلوم الإنسانية

محمد حسن عصفور

أستاذ الأدب الإنجليزي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،

جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين، الإمارات العربية المتحدة

الكلمات المفتاحية: العلوم الإنسانية، الدراسات البينية، المنهج، المعرفة.

ملخص المداخلة: الاختلاف بين العلوم البحتة والعلوم الإنسانية متأت في أحد مظاهره من انفتاح حدود الاختصاص في العلوم الإنسانية. وهذه الورقة تبحث فكرة الاختصاص بين هذين الصنفين من العلوم من جانب تاريخي يلمح في تزايد المعارف واتساعها وغزارة إنتاجها ما يؤدي إلى العجز عن متابعتها ومن ثم التفريط – بالضرورة – في صفة الموسوعية، أي الإلمام بتخصصات معرفية مختلفة، التي كانت صفة العلماء والفلاسفة قديماً، ومن جانب موضوعي فالتخصص بمعناه الضيق يضع المتخصص في دائرة مغلقة بحيث لا يرى الدوائر الأخرى التي تحيط به. وقد مضت الورقة في ضوء ذلك إلى توصيف منهجية العلوم الإنسانية في موقع "بيني" بين العلوم البحتة من جهة والفنون من جهة أخرى، وبين الاختصاصات الإنسانية ذاتها.

تختلف العلوم الإنسانية عن العلوم البحتة بكون الاختصاص فيها أمراً مفتوح الحدود. ففي الطبِّ مثلاً يمكننا أن نتحدَّث عن متخصِّص في العيون، وآخر في الأنف والأذن والحنجرة، وآخر في الأعصاب، وآخر في الأسنان، وآخر في الجلد – هذا إذا حصرنا اهتمامنا بمنطقة الرأس فقط. وقد أصبح من غير المقبول لأيٍّ من هؤلاء المتخصِّصين أن يعالج أمراضاً هي من اختصاص سواه لأنه – بالتعبير الدارج – "لا يفهم فيه". أما في العلوم الإنسانية فإن هذا القدْر من التخصُّص غير موجود وغير مرغوب فيه. صحيح أن

جامعاتنا قد ترسل مبعوثين إلى الغرب لتملأ فراغاتٍ معيَّنة في أقسام علم الاجتماع أو علم النفس أو الأدب الإنكليزي، لكن العائد بشهادة الدكتوراه الذي يعرف كلَّ شيءٍ عن كيتْس "ولا يفهم" في روايات هاردي أو فورستر أو مسرحيات برنارد شو أو في أشعار پوپ أو ت. س. إليوت شخص غير مفيد لقسمه ؛لأن أقسام اللغة الإنكليزية لا يمكنها أن تخصِّص مدرِّساً لكل شاعر أو روائي أو كاتب مسرحي.

لقد كان الفيلسوف في الماضي شخصاً يلمُّ بعلوم عصره ويحاول تنظيم معارفه في نظام معيَّن تنتظمه مقولاته الأساسية في الفيزيقا والميتافيزيقا ، بحيث صحَّ في يومٍ من الأيام قول الفيلسوف ألفرد نورث وايتهد إن الفلسفة الأوروبية ما هي إلا سلسلة من الحواشي على أفكارٍ بذرها أفلاطون في جمهوريته. (Alfred North Whitehead ، 1979: 39)، كذلك كتب أرسطو في كل ما كان يعرفه عصره، وما زلنا نكتب الحواشي عن منطقِهِ وسياستِهِ وأخلاقِهِ ونظراتِه الأدبية. لكن أمثال هذين المفكِّرين ما عاد بالإمكان وجودهم في هذه الأيّام ؛لأن عدد الكتب والأبحاث التي تنشر كلَّ يوم يفوق قدرة الفرد على المتابعة مهما بذل من جهد. فنحن نعيش في عصرٍ يتطلَّب التخصُّصَ في حقل محدود من أجل اكتشاف شيءٍ جديد يضاف للمعرفة النظرية أو طريقةٍ جديدةٍ لعمل شيء مفيد للبشرية.

وإذن فإننا نجد أنفسنا أمام مفارقة يصعب التخلُّص منها، وهي أن الإحاطة الموسوعية بمعناها القديم لم تعد ممكنة، وأن التخصُّص بمعناه الضيَّق يضع المتخصِّص في دائرة مغلقة بحيث لا يرى الدوائر الأخرى التي تحيط به ولا يكترث لها رغم أنها تؤثِّر في صميم عمله. وقد كان الكاتب چارلزپيرسي سْنو قد اشتكى من القطيعة التي أخذت تحصل في القرن العشرين بين من دعاهم أتباع الثقافتين: ثقافة العلماء وثقافة الأدباء (Roger Kimball، 1994)، وهي قطيعة تتمثَّل في معظم بلادنا العربية في تقسيم الدراسة السابقة للمرحلة الجامعية إلى مسارين: علميٍّ وأدبيّ، مع افتراضٍ ضمنيٍّ مؤدّاه أن المسار العلمي يحتاج إلى قدرات عقلية أعلى من القدرات التي يحتاجها المسار الأدبي. وهذا افتراضٌ أقلُّ ما يقال فيه إنه يحتاج إلى أعادة نظر. لكن المجال المتاح هنا لا يسمح لي بالتوسُّع في هذه الناحية، لأن المطلوبَ تناولُ الدراسات البينية في العلوم الإنسانية والمنهجية التي تنتظم هذه الدراسات.

وأحبُّ أن أبدأ من الحقل الذي أعمل ضمنه، وهو حقل الأدب الإنكليزي. وهنا أجد لزاماً عليّ أن أقول

إنني متأثِّر في هذا المجال بأفكار باحثٍ كنديٍّ اسمه نورثْرُپ فْراي كنتُ ترجمتُ كتابه الرئيس *Anatomy of Criticism* بعنوان **تشريح النقد** نشرته الجامعة الأردنية في سنة 1991. وفي هذا الكتاب الشهير يرى فْراي أن الأدب لا يمكن تدريسه، وأن كلَّ ما يفعله مدرِّسو الأدب هو أنهم يدرِّسون النقد. والنقد في نظر فْراي علمٌ اجتماعيٌّ، وهو يحتاج – ليستحقَّ لقب العِلم – إلى أن يتَّصف بتلك الدرجة من الدقَّة والالتزام بالمنهج العلمي ما نجده في العلوم الإنسانية.

والعلوم الاجتماعية – أو الإنسانية بمصطلحنا نحن – تشكِّل صنفاً من العلوم نميِّزه عن العلوم البحتة. ففي العلوم البحتة يُتَوقَّع من العالِـم أن يكون دقيقاً في منهجه ونتائج أبحاثه. أما في العلوم الإنسانية فإن من غير الواقعي توقُّع هذا القدْر من الدقَّة. ولذا يقال – تلميحاً أو تصريحاً – إن الباحثين في العلوم الإنسانية يمكنهم تمرير الكثير من الأفكار التي تفتقر للتمحيص الدقيق. ذلك لأن القياسات الدقيقة التي يستعملها عالم الكيمياء أوالفيزياء ليست متاحة للباحث في العلوم الإنسانية.

لكنْ لا يجادل أحدٌ في أن العلوم الإنسانية **علومٌ** لأنها تسعى باستمرار للوصول إلى أقصى درجات الدقَّة الممكنة في منهجيَّتها في المجال الذي تدرسه. إذ يستخدم كثير من هذه العلوم الإحصاءات والملاحظة المنسَّقة لمادّة الدراسة. والطبُّ، وهو علمٌ يصنَّف في العادة في فئة العلوم البحتة، كثيراً ما لا يتَّصف بالدقَّة المرغوبة. ونحن نعلم ذلك من خلال التجارب المؤلمة، والأخطاء الطبِّية باهظة التكاليف كما يعرف الجميع.

لكنني لا أرغب في تسويغ نواحي القصور في العلوم الإنسانية بالاستشهاد بأخطاء العلوم البحتة. وما أريد التأكيد عليه هو أن العلوم الإنسانية لها منهجيَّتها – أو قل منهجيّاتها بصيغة الجمع – التي تتفاوت من حيث الدقَّة على مقياسٍ متدرِّج يقترب من العلوم البحتة في بعض الحالات ومن الفنون في حالات أخرى. ولو أخذنا مثالاً من فرعٍ من الدراسات الإنسانية هو فرع تحقيق النصوص لوجدنا أن هذا النشاط البحثي يحتاج من الدقَّة والتمحيص ما يشبه مراقبة الفئران الموضوعة ضمن ظروف بحثية مُعَدَّة بدقَّة في المختبر. فكلُّ فاصلة، وكلُّ كلمة، وكل تلميح، وكلُّ إشارة إلى حادثة تاريخية تستوجب التدقيق والتحقيق قبل نشر المخطوط للحصول على القبول من فئة الدارسين. والمحقِّقون الثقات يبذلون من الجهد ما يبذله العلماء في مختبراتهم. ومعايير الدقَّة لديهم لا تقلُّ صرامة عن معايير الدقَّة لدى الباحثين في العلوم البحتة.

ومن الأمثلة على هذا النوع من النشاط العلمي ذلك الجهد العلمي المضني الذي بذله علماء الحديث في تحقيق الحديث النبوي الذي تُنوقِل شفاهاً في أوّل الأمر ثم كتابة بعد ذلك بحيث احتاج التحقُّق من صحة الروايات إلى منهجية بالغة الدقَّة مكَّنت علماء الحديث من تصنيف الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف وموضوع. وعندما بدأ تدوين النصوص الدينية وغير الدينية فإن مهمة المحقِّق ازدادت سهولة من ناحية، وازدادت صعوبة من ناحية ثانية. فالنصوص غالبا لا تُنقَل بالدقَّة المطلوبة لأسباب كثيرة، وعندما يمرُّ وقتٌ طويلٌ بين كتابة النسخة الأولى والنسخ التي تظهر فيما بعد فإن المشكلة تتعقَّد لأن النسخ المتأخِّرة قد تتعرض للبلى أو التحريف المقصود أو غير المقصود. وعندما نصل إلى عصر شيكسبير _ إن شئنا التمثيل من ثقافة أخرى – فإن أعماله نشرت في أوقات متفاوتة في أثناء حياته بأشكالٍ متعدِّدة تخلو من الدقَّة ، وتحتاج كل نشرة منها للمقارنة مع الأعمال الكاملة التي نشرها صديقاه جون هِمِنْغْز وهنري كونْدلبعد وفاته بسبع سنوات. ومع أن طبعة سنة 1623 للأعمال الكاملة أفضل من الطبعات المتفرِّقة التي نشرت قبل ذلك فإنها طبعة بعيدة عن الكمال. ولذا فإن علم التحقيق الحديث بذل جهداً مضنياً لدراسة المطابع الإنكليزية في العصر الإليزابيثي وكيفية تنضيد الحروف والأخطاء الممكنة في وضع حرف محل حرف آخر، بحيث نحصل اليوم على طبعات نقول إنها الأقرب لما قد يكون شيكسبير قد كتبه. (See Ronald B. McKerrow ، 1927)، وهذا لعمري جهد علميٌّ خالص يشبه الدراسة المختبرية التي يجريها العلماء في بعض علومهم البحتة.

كذلك فإن المؤرِّخين، وهم فئة من الباحثين في العلوم الإنسانية تتعرَّض باستمرار لتهمة العجز عن التوصُّل إلى الحقيقة في المسائل الحسّاسة، يحاولون قدر استطاعتهم توخّي الموضوعية والالتزام بالمعايير العلمية في استخدام وثائقهم وتجميع أدلَّتهم من مصادرها حيثما أمكنهم ذلك. صحيح أن المؤرِّخين القُدامى لم يكونوا حريصين عل التحقُّق من صحة رواياتهم أو قادرين على التمييز بين ما هو تاريخي وما هو أسطوري، ولكن هذه المرحلة من عملهم انتهت بالسعي المتزايد نحو التثبُّت من الروايات ومن الأدلة المادِّية. وقد نُشر العديد من الكتب التي تبحث في المنهج، لعلّ مقدِّمة ابن خلدون أشهرها في تراثنا العربي الإسلامي. ولكن الكتب الحديثة التي تتناول مناهج البحث في التاريخ لا تقلُّ في صرامتها المنهجية عن الصرامة التي تشدِّد عليها كتب الدراسات

المنهجية في العلوم البحتة، مع التشديد على أن مادة البحث التاريخي لا يمكن أن تخضع للقياسات التي يمكن اللجوء إليها في حالة العلوم البحتة، ذلك لأن الأفعال البشرية أعقد من أن يفسِّرها أيُّ منهج فرد، ولكن ذلك لا يعني أن البحث يجب أن يتوقَّف ما دامت آلة القياس لا تعطينا أرقاما صحيحة متكرِّرة.

وفي هذا السياق اطَّلعتُ مؤخَّراً على مقالةٍ عنوانها "هل يتَّصف الباحثون في العلوم الاجتماعية بالتخلُّف؟" للكاتب دونَلْد ل. كيمِرَر يبدأه بالتساؤل الآتي: "أتوافقون على القول إن السبّاحين أقلُّ كفاية في مهاراتهم الرياضية من العدّائين ؛لأن السبّاحين لا يبلغون سرعة العدّائين؟ أغلب الظنِّ أنّكم لا توافقون. ستسارعون إلى القول إن الماء يشكِّل مقاومة أشدَّ للسبّاحين من المقاومة التي يشكِّله الهواء للعدّائين. وأنا أوافقكم. فالباحثون في العلوم الإنسانية يواجهون مقاومة أعلى من تلك التي يواجهها الباحثون في العلوم البحتة." (Qtd by James M. McCrimmon ، 1957: 245)، فالمادَّة التي تدرسها العلوم البحتة إمّا مادَّةٌ لا حياة فيها (كما في علمَي الكيمياء والفيزياء) أو أفكارٌ مجرَّدةٌ كالرياضيات. أمّا الطبُّ فقد اكتشفنا أنه أقلُّ العلوم البحتة دقَّة، ولذا يكثر فيه هامش الخطأ. أمّا مادَّة البحث في العلوم الإنسانية فهي الإنسان الفرد أو الإنسان بصفته كائناً في جماعة بشرية، وهو لذا أشدُّ مقاومة للتجريب من العناصر الكيميائية والتيّارات الكهربائية وحركة الإلكترونات.

ومع ذلك فإن الباحث في العلوم الإنسانية يسعى لأن يتَّبع منهجاً ظلَّ يقترب من مناهج العلوم البحتة ما وسعه الاقتراب. هذه على سبيل المثال أقوالٌ وردت قبل أكثر من قرن في كتاب *Philosophie de l'Art* للكاتب الفرنسي إيپولِت تَين:

"المنهج الحديث الذي أسعى لاتِّباعه، وهو المنهج الذي أخذ يدخل العلوم كافَّة، يعتمد على النظر إلى الإبداعات الإنسانية جميعها، ولا سيما الأعمال الفنِّية، على أنها وقائعُ ومنتجات يتوجَّب الكشفُ عن مميِّزاتها وتَتَبُّع أسبابها على نحو واضح لا أكثر ولا أقلّ. وعلى هذا فإن العلم لا يحكُم على الأشياء ولا يبحث لها عن مسوِّغات ؛لأن واجبه هو التأسيس والتفسير. وعلى العلم الثقافي أن يستخدم المناهج التي يستخدمها علمُ النبات الذي يدرس أشجار البرتقال والراتينج والحور كأنها متساوية فيا لقيمة. والواقع أن العلم الثقافي ليس أكثر من شكل من أشكال علم النبات التطبيقي مجاله المنجزات الإنسانية وليس النباتات. ولذا فإنه ينتمي إلى الحركة العالمية في أيامنا هذه، إلى العلوم الإنسانية...والعلوم الطبيعية يقترب بعضها من بعضها

الآخر، وتقترب منها العلوم الإنسانية التي أخذت تحقِّق من اليقين والتقدُّم ما تحقِّقه العلوم الأخرى". (Qtd by Ernest Cassirer، 1965: 14/ 15)

ونحن قد لا نشارك تَين ثقته في أن العلوم الإنسانية تحقِّق الدرجة نفسها من اليقين والتقدم التي تحقِّقها العلوم البحتة، ولكننا لا نملك إلا التسليم بأن العلوم الإنسانية أخذت تطوِّر مناهجها البحثية أكثر من ذي قبل ،وتُخضِع نتائجها لمعايير أشدَّ صرامة من التقييم. فالذوّاقة القديم في حقل الأدب حلَّ محلَّه الأكاديمي المدرَّب أو الناقد الأدبي الذي لا يُسمَح له خارج حلقات الأصدقاء والجلسات غير العلمية بأن يبدي من الآراء ما لا سند له. إن عليه أن يقدِّم دليله على كل رأيٍ يبديه. إذ لم يعد بوسعه أن يطلق الأحكام على غرار أحكام الدكتور سامْيُوِل جونْسن، أو أن يقترح مقاييس ذاتية من ذلك النوع الذي تحدَّث عنه ماثيو آرنولْد.

تتشكَّل دراسة الأدب من ثلاثة أنواع من الأنشطة: (1) البحث التوثيقي، (2) النقد الأدبي، (3) النظرية الأدبية. وينصبُّ البحث التوثيقي بالدرجة الأولى على ما يمكن وصفه بالحقائق: الحقائق الخاصَّة بالمؤلِّف كما في كتابة السيرة؛ والحقائق الخاصَّة بالمؤلَّف كما في عملية تحقيق النصوص ونشرها نشراً علميّاً؛ والحقائق الخاصة بالخلفيّات التاريخية والبيئة الثقافية التي كتب المؤلِّف مؤلَّفه ضمنها، كما يحصل في ما يدعى بالنقد التاريخي. ولذا فإن البحث التوثيقي أقرب أنواع الدراسة الأدبية للعلوم. فهو يستبعد التخمين والأقوال التي لا تسندها الوثائق والأدلَّة التاريخية. وهو يحاول أن يوثِّق كلَّ قولٍ يتقدَّم به بحاشية تدعمه من مصدر موثوق.

أما النقد الأدبي فيختلف. فهو يستخدم البحث التوثيقي أساساً له، ولكنه يبني عليه بنىً فكريةً قوامُها المحاجَّةُ الصُّلبةُ الـمُحكمة. لقد جاء وقت لم تكن فيه المحاجَّة بالإحكام المطلوب، وكان اسمُ الناقد كافياً لكسب القبول. أما الآن فلم يعد ذلك مقبولاً. لا شكَّ في أن النقد الانطباعي سيستمرُّ في الظهور، ولكنه لن يظهر في الدوريّات المتخصِّصة الـمُحَكَّمة ذات الصبغة العالَمية ؛لأن هذه الدوريّات تشترط للنشر أن تكون أبحاثها مُحْكَمَةَ الحجَّة، مستندةً إلى بحث توثيقي له صفةُ الاستقصاء، وتقوم على المنهجية العلمية بالمعنى الذي بيَّنّاه فيما سبق. فالنقد الأدبي، كالفلسفة، يعتمد اعتماداً شديداً على العرض المنظَّم للأفكار. ويستخدم هذا العرض الحقائق عندما تتوافر، وعلى المنطق عندما يكون الكاتب معنيّاً بعرض آراء وأقوال يسعى للتأسيس عليها. وقد كان المنطق من أوائل "آلات

التفكير" التي أرسى الفلاسفة أُسُسَها وظلَّ منذئذٍ "آلة" رائعة من آلات العقل يستطيع بواسطتها فصل السليم عن الفاسد.

أما النوع الثالث من النشاط الأدبي فهو التفكير النظري. ذلك أن من الممكن أن يبدأ الباحث بنظرية يحتاج لإثبات صحَّتها إلى جمع الأدلَّة، على غرار ما يحدث في العلوم البحتة. فإن أثبتت الأدلَّةُ فسادَها أُهمِلت، وأن أثبتت سدادَها تحوَّلت إلى قانون، وإن أثبتت حاجتها للتعديل عُدِّلت. وقد يبدأ الباحث من الطرف الآخر، وذلك بملاحظة الوقائع أو المعطيات للحصول على ثوابت تتكرَّر تصلح للتعميم وإجراء التوقُّعات. فإن ظلَّت التعميمات والتوقُّعات ذات ثبات معقول حوّلها صاحبها إلى نظرية. وهذا هو ما يحصل في النظرية الأدبية. فقد يبدأ الباحث بقراءة عدد كبير من القصص. وهذه القراءة يمكنها أن تزوِّده بظواهر متكرِّرة يستطيع أن يُقيم بواسطتها تعميمات عن فنِّ القصة، وعن خصائص هذا النوع الأدبي، سواء ما كُتب منه أوما سيُكتب. وهذا ما حصل على سبيل المثال في دراسات ڤلاديمير پروپ للحكايات الشعبية.كذلك يمكن البدء بنظرية يُطلب إثباتها. ولنفترض أن النظرية تقول إن الأدب، شأنه شأن الكثير من الأنشطة الإنسانية الأخرى، لا يمكن فهمه إلا بفهم الظروف التاريخية التي أنتجته. يقرأ الباحث كمّاً كافياً من أدب مرحلة تاريخية معيَّنة ويسعى للحصول على ما يكفي من الأدلَّة على صحَّة نظريَّته. وفي معظم الحالات يمكن الحصول على الأدلَّة المطلوبة بالتنقيب والاستقصاء. والنظرية الأدبية، شأنها شأن الفلسفة، تعتمد اعتماداً شديداً على المحاجَّة، والمحاجَّة لا تعني الإتيان بأقوال لا تسندها الوقائع، بل تعني إسناد هذه الأقوال بكلِّ ما لديك من أدلَّة، سواء منها ما استُمِدَّ من وقائع وبيانات أو ما قام على المنطق.

والواقع أن نجم النظرية الأدبية أخذ بالصعود في العقود الأخيرة أكثر من أيِّ وقت مضى بحيث شهدت أقسام اللغة الإنكليزية تغييرات جذرية في مناهجها التدريسية وفي المادة التي تدرِّسها. ففي الماضي كان يُتَوقَّع من الأكاديمي الجامعي المشتغل في حقل الأدب أن يشتغل بالدرجة الأولى بالبحث التوثيقي: بنشر الطبعات المحقَّقة، وكتابة السيرة، وإجراء الدراسات الخاصة بالظروف التاريخية التي رافقت النشر، إلى آخر ما هنالك مما يتَّصل بالأدب والأديب. أما في هذه الأيّام فإن هذا الأكاديمي يُتَوقَّع منه أن ينخرط في إنتاج النظرية وتطبيقاتها. ولا شكَّ في أن النظرية تثير من التحدِّيات ما قد يكون أصعب من البحث التوثيقي الذي أخذ يُنظر إليه على أنه أقرب إلى العمل الميكانيكي

المضني منه إلى العمل الإبداعي. ولعلَّ الحادثة الآتية تمثِّل هذه النظرة تمثيلاً كافياً. فقد حضرتُ قبل سنواتٍ حفل عشاء على شرف الدكتور صلاح فضل (الذي يعمل بالدرجة الأولى في مجال النظرية الأدبية) دُعيت إليه برفقة المرحوم الدكتور إحسان عبّاس (الذي عُرف أكثر ما عرف بتحقيقاته ودراساته التوثيقية). وفي تلك المناسبة سأل الدكتور فضل الدكتور عبّاس قائلاً: "لماذا لا تترك عناء تحقيق النصوص وتنشغل أكثر في النقد الأدبي والنظرية الأدبية؟" ونحن نعرف أن الدكتور عبّاس أنتج عدداً من الدراسات المرموقة في مجال النقد الأدبي إلى جانب تحقيقاته المعروفة، ولكن سؤال الدكتور فضل كان وليد البيئة الفكرية السائدة آنذاك، وهي بيئة تُعلي من شأن النشاط النظري في الحياة الجامعية. ولقد يكون ذلك من باب التحيُّز الآني لمدرسة في البحث الأدبي اختلَّت فيها التراتُبية القديمة وحلَّت محلَّها تراتُبية جديدة. ومما له دلالته في هذا المجال أن الانحياز للنظرية أخذ يستثير ردود فعل سلبية حتى في الغرب نفسه.

لكن علينا ألاّ ننسى أيضاً أن الدراسات الأدبية أخذت تستفيد على نحوٍ متزايد من مناهج العلوم المجاورة ونتائجها. فمن التاريخ تعلَّمت الدراسات الأدبية ربط المؤلِّف وعمله بالخلفية التاريخية التي حدَّدت أفكاره وشكَّلت مشاعره. ولجأت هذه الدراسات إلى علم النفس لفهم المؤلِّف أحيانا ولفهم الشخصيّات التي ابتدعها. ومن علم الاجتماع استعارت وسائل لدراسة الذائقة العامة للقرّاء ولفهم الظروف الاجتماعية التي عاش فيها المؤلِّف وعلى نوع الأدب الذي ينتجه الأدباء والكتابات التي تنتشر بين القرّاء وأسباب هذا الانتشار. ومن علم الاقتصاد أخذت تستعير أفكاراً تفسِّر بواسطتها الأثر الذي تتركه الظروف الاقتصادية على الكاتب والكتب وعلى إنتاجها وتسويقها. ومن السياسة تعلّمت كيف أن الأدب لا يخلو من التوجُّهات السياسية مهما حاول الكاتب إخفاءها ؛لأن الكاتب بطبيعته مخلوق سياسي، ولا يستطيع الانفكاك من السياسة حتى لو أراد.

معنى هذا أن الأدب ظاهرة يبلغ من تعقيدها أن إمكاناتها لا يمكن الإحاطة بها بأيِّ منهج بمفرده. وللتمثيل عل ذلك سآخذ مثالاً واحداً من نوع أدبي واحد هو الرواية. فقد نشر الكاتب إ. م. فورستر روايةً بعنوان **رحلة إلى الهند** في سنة 1924. وهي تصوِّر الوضع في الهند في عهد الاستعمار البريطاني. ولهذا فهي تستدعي البحث في تاريخ هذا الاستعمار في الهند وما خلَّفه هذا الاستعمار على عقلية المستعمِر والمستعمَر ومشاعر كلٍّ من الطرفين نحو الطرف الآخر. ولكن

الاستعمار البريطاني في الهند جزءٌ من الاستعمار البريطاني في مناطق أخرى من العالَم، ومن ظاهرة الاستعمار الأوروبي على وجه العموم. ودراسة هذه الظاهرة كفيلة بإلقاء ضوء كاشف على الرواية وعالَمها لا يتاح لنا من غيرها. ثم إن الرواية تتناول التوتُّرات التي كانت سائدة آنذاك بين المسلمين والهندوس قبل الاستقلال. وهذه ناحية يمكن دراستها بالاستعانة بتاريخ انتشار الإسلام في شبه القارَّة الهندية ودور الإسلام في إثراء الحضارة الهندية. ومن الممكن أيضاً تتبُّع بذور التوتُّرات بين الطوائف الهندية بقراءة الصورة التي يرسمها ابن بطوطة للهند أثناء تجواله فيها. كذلك فإن هذه التوتُّرات يمكن أن تُدرس بصفتها إرهاصات تنبئ بما كان سيحدث بعد عقدين من الزمان، أقصد اضطرار القادة الهنود للتسليم بضرورة انفصال الباكستان، وانقسام الباكستان إلى دولتين فيما بعد. والرواية فضلاً عن ذلك تصوِّر العلاقات بين الثقافتين الأوروبية والشرقية. والصراع بين هاتين الثقافتين بادٍ للعيان في كلِّ صفحة من صفحات الرواية. وهذا موضوع يمكن التوسُّع فيه وفق أفكار نجدها عند رديارد كپلنغ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إن شئنا ولكنها عادت لتظهر من جديد في كتاباتٍ مثل كتابات هنتنغتن وغيره في أيامنا هذه. وتصوِّر الرواية شخصاً أوروبيا لبراليّاً يحاول أن يرى الأمور بوضوح وموضوعية، ولكنه لا يستطيع عندما يعود إلى أوروبا التخلُّص من الشعور بأن ما هو طبيعي أو معياري هو الأوروبي، وأن كل ما عدا ذلك فهو انحراف عن هذا المعيار. وهذه الناحية يمكن دراستها من خلال التوجُّه الواعي وغير الواعي لدى الأوروبيين للنظر إلى العالَم من حيث مركزية أوروبا التي تفهم الأمور كلَّها من حيث علاقتها بأوروبا. والرواية تضمُّ أيضاً عدداً لا بأس به من الشخصيات الهندية والأوروبية، وهذه شخصيّات تمثِّل أنماطاً سيكولوجية متباينة قابلة للدراسة والتحليل النفسي. كل ذلك يضاف إلى المعالجات التقليدية للفن الروائي، التي تركِّز عل بنيتها وتصوير شخصيّاتها وأغراضها ورموزها وصورها وأسلوبها.

لقد ذكرت أعلاه أن مناهج العلوم الإنسانية تسير على مقياسٍ يقترب من العلوم البحتة من أحد طرفيه ومن الفنون من طرفه الآخر. والنقد الأدبي في الحقل الذي أعمل فيه مثالٌ على ذلك. فهناك عددٌ كبير من نقاد الأدب الذين يشتغلون في هذا الحقل بعقلية الباحث الموضوعي كما تدلُّ آلاف أطروحات الدكتوراه التي تجيزها الجامعات في العالَم. ولكن الغالبية العظمى من هذه الأطروحات يتجمَّع فوقها الغبار على رفوف المكتبات الجامعية ؛لأنها لا تزيد عن

كونها تمرينات في البحث العلمي. أما النقّاد المهمّون فعلاً فقد ظلّوا على الدوام من أولئك الذين يتحدَّثون حديثاً له وزنه الذي يكتسبونه، لا من الحواشي والتوثيقات والقوائم الطويلة من المصادر والمراجع أو المنهجيّات، بل مما لديهم من عقول تتَّصف بالشمول وعمق البصيرة. فكتاب **فن الشعر** لأرسطو وقصيدة "مقال في النقد"لألكزاندرپوپ، وكتاب **السيرة الأدبية** لكولرج، ومقال "دفاع عن الشعر" لشلي، ومقال "التراث والموهبة الفردية" لإليوت وكثير غير هذه لا تستمد قوّتها من قوّة المنهج بل من قوَّة العقول التي أنتجتها، تلك العقول التي لا يستطيع أيُّ منهج أن يحدَّها بحدوده. هنا نصل إلى ذلك النوع من النقد الذي لا نستطيع فصله عن الفنّ. لقد قال پوپ في معرض تقييمه لما صنعه الشاعر الروماني هوراس في قصيدته عن **فن الشعر**إن هوراسيسحرنا بما يبدو عليه من إهمال للقواعد، ويغرس فينا الحكمة من غير التزام بمنهج ظاهر.

لكن بما أن أمثال هؤلاء النقّاد نادرون، فإن البقية الباقية منا لا يمكنها التقدُّم من غير الاستعانة بالمنهج.

المراجع :

-Alfred North Whitehead, *Process and Reality* (New York: Free Press, 1979)
-Roger Kimball, "The Two Cultures" Today, *The New Criterion* (February 1994), http://www.newcriterion.com/articles.cfm/-The-Two-Cultures--today-4882
-See Ronald B. McKerrow, *An Introduction to Bibliography for Literary Students* (Oxford: The Clarendon Press, 1927).
-Qtd by James M. McCrimmon in *Writing with a Purpose*, 2nd ed. (Cambridge, Mass: Riverside, 1957).
-Qtd by Ernest Cassirer in his *The Logic of the Humanities* (New Haven: Yale Univ. Press, 1961).